الكشافة والاسلام – بولونية والحجاز

الكشافة في الاسلام

كل يعلم ان الكشافة مؤسسة حديثة وضعها الافرنج ، واخصهم الانكليز ، لتدريب الاحداث على الإقدام والجرأة والشجاعة ، بتمرينهم على التمارين البدنية ، وعلى العيشة في البراح والخلاء ، والانتفاع بهم في خدمة البلاد الخ . ولم يخب امرها على السيد مصطفى جواد ، فقد سطّر خلاصة تاريخ نشأتها في مجلة العرفان ، وجعل خلاصة فاتحة لدرس آخر وهو «الفتوّة في الاسلام» . وابى الا ان يرى تشابهاً بين المؤسستين ؛ والكشافة لا تشبه الفتوة اكثر مما تشبه النفاحة النخلة ، وشتان بين شجر بلاد الشمال وشجر بلاد الجنوب . ولعل الرغبة في ربط المخترعات الحديثة بلائق موشجة اصولها في عصور التاريخ الاسلامي الماضي ، شأنٌ من يرون في اخبار تلك العصور بذرة الاختراعات الحديثة ، لعل تلك الرغبة حدت بصاحب المقال الى المقابلة بين الكشافة والفتوّة ؛ والعلاقة بين المؤسستين واهنة ، سطحية . على اننا نأخذ من كلامه عن فتيان الاسلام ما يفيدنا في معرفة اخبار الشيعة ، والعرفان ترجمانهم . تكلم السيد مصطفى جواد على الكشافة ثم قال :

هذا المذهب الحيوي نشأ مثله بعد ظهور الاسلام لتهذيب الاخلاق ونعش النفوس والاغراء بالشجاعة وبث الاخاء بين الناس والدعوة الى الفضائل والتجافي عن الرذائل ، ويعرف عند المسلمين بـ (الفتوة) واصحابها يسمون (الفتيان) جمع فتى . فالفتوة هي استجماع النعوت الكريمة والاخلاق القويمة والطباع السليمة والجرأة والسخاء والكرم في صاحبها (الفتى) .

قال الشريف الجرجاني في التعريفات : الفتوة في اللغة : السخاء والكرم ، وفي اصطلاح اهل الحقيقة : هي ان تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة .

وقال ابن عربي : « الفتوة » الصفح عن عثرات الاخوان[1] وقال عبدالحميد بن ابي الحديد في (٣ : ٧١) من الشرح في احوال العارفين بالله تعالى « ومنها الفتوة ، قال سبحانه مخبراً عن اصحاب الاصنام : قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ، وقال تعالى في اصحاب الكهف انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وقد اختلفوا في التعبير عن الفتوة ما هي ؟ قال بعضهم : الفتوة ان لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك ، وقال بعضهم : الفتوة الصفح عن عثرات الاخوان ... وقال الحارث المحاسبي : الفتوة ان تنصف ولا تتصف. وقال عبد الله بن احمد بن حنبل : سئل ابي عن الفتوة فقال : ترك ما تهوى لما تخشى. وقيل : الفتوة الا تدخر ولا تعتذر. سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق السلام ، عن الفتوة فقال : ما تقول انت ؟ قال : ان اعطينا شكرنا وان منعنا صبرنا ، فقال : ان الكلاب بالمدينة عندنا هذا شأنها ولكن قل : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا » اه كلام ابن ابي الحديد.

الفتيان ينسبون فتوتهم الى الامام علي بن ابي طالب ابي الحسن وكذلك الصوفية فامير المؤمنين قدوتهم وفيه اسوتهم ويؤمنون بانه عليه السلام اب الفتيان وسيدهم واقدمهم . قال ابن ابي الحديد[2] « وما أقول في رجل احب كل احد ان يتكثر به وود كل احد ان يتجمل ويتحسن بالانتساب اليه حتى « الفتوة » التي احسن ما قيل في حدها ان لا تستحسن من نفسك ما تستقبحه من غيرك . فان اربابها نسبوا انفسهم اليه وصنفوا في ذلك كتباً[3] وجعلوا لذلك اسناداً انتهوه اليه وقصروه عليه وسموه سيد الفتيان وعضدوا مذهبهم بالبيت المشهور المروي انه سمع من السماء يوم احد

« لا سيف الّا ذو الفقا ر ولا فتى الّا علي » ...

ولا ادري هل يتفق المحدثون كلهم على صحة تلك الرواية ، وليس من شأننا مناقشة الموضوع فيها ، بل حسبنا الاطلاع على ما قاله المؤلف في الامر وقد يرادف ما جاء على مادة « فتوة » في الموسوعة الاسلامية الاوربية. قال ما خلاصته :

---

١) نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار. ص ٢٤١

٢) مج ١ ص ٦

٣) ذكر لي الاب انستاس انه كان عنده كتاب في الفتوة

تحولت الفتوة الى اطوار شتى ، ودخل فيها الفناء ، ورمي البندق ، وتطيير الحمام للمسابقة واللهو ، وتأليف كتب في انساب الحمام ، كما ألفوا قبلاً كتباً في انساب الخيل ... فالفتوة كانت تتقلب بين الدين والتعصب والنفع والضرر والاصلاح والفساد . فبعد ما كانت للاصلاح والمؤاخاة والتشجيع اصبحت في زمن الامويين من اللهو والترف والاسراف ، وفي القرن السادس الهجري من التعصب وافساد النظام.

وتمنطقت الفتوة ، خاصةً ، على ايام الناصر بدين الله العباسي (١١٨٨ — ١٢٢٥م ٥٧٥ — ٦٢٢ه) بنطاق النظام المهول امره بصاحب الحكم فذكرتنا بفروسية القرون الوسطى ، عند الافرنج ، لما كان صاحب السيادة يخول مواليه بعض الحقوق والامتيازات ويلبسهم الاسلحة ، ويسلمهم السيف الخ . فيؤهلهم للقيام في خدمة الدولة .

وغلبت على الفتوة ، في بعض الانحاء ، نزعة اللهو ، وجردتها من صفاتها الحربية والبستها حلة التصوف المشتبه امره بين الزهد والملاعبة ، وجعلتها مؤتلاً لشتى الاغراض السياسية المذهبية ، ومندفاً لاثارة الفتن ولم تكن اذ ذاك قط اتمائل الفروسية او الكشافة !

بولونية والحجاز

مليحة هي الاخبار التي رواها صاحب المنار (السنة ٣١ ، ص ١٤١ ...) على حسن معاملة دولة بولونية الكاثوليكية لرعاياها المسلمين . واملحها وقوعها في بلدة خص قسم كبير منها ، في عامها الماضي ، بالطعن في المسيحيين وتجريحهم في كثير من الآفات المدنية الاجتماعية الفاتكة في المسلمين . ولو انصف صاحب المنار ، لأقرّ بان حال المسلمين في البلاد الخاضعة لحكم الافرنج ليست دون ما وصفها في بولونية عن لسان المفتي في تلك البلاد . قال :

زار مصر صاحب الفضيلة مفتي المسلمين في بولونية وزعيمهم الديني (الشيخ يعقوب شنكفتش) في طريقه الى الحجاز فلقي من تكريم فضلاء المسلمين وجمعية شبانهم ومن جمعية الرابطة الشرقية ما يليق بزعامته وشخصه الكريم ، وقد ألقى في نادي الخطابة من دار جمعية الشبان المسلمين محاضرة في بيان حال المسلمين في بولونية وما لهم فيها من حرية الدين المطلقة ومن مساعدة الحكومة البولونية الكاثوليكية لهم ما كان موضع الاعجاب والعجب من كل من سمعه .

وذهب السيد محمد رضا الى تعليل هذه المفارقة التي لم تكن لتخطر له ببال قطّ ، ولم يكن ليحلم بامكان وقوعها ، فنسبها الى صدق تديّن البرلونيين المسيحيين فقال :

ان ذلك فوق المعهود من الدول الاوربية وسببه الحقيقي عندنا ان تدين برلونية امتها وحكومتها بالنصرانية تدين عقيدة واخلاص فهو لا ينافي الاتفاق مع المسلمين.

فحسبنا ذلك ردّاً على تحامل المنار واقترانه على النصرانية واحبارها وكهنتها وتباعها . وليعلم ان النصرانية هي التي هذبت العالم ، ونشرت اجنحتها البيضاء على كل قطر ازدهرت فيه المدنية والعمران ، فسطع نور الرقي والعدل حيث سطع نورها ، وتضاءل ضياؤه حيث تضاءل ضياؤها.

هذا وقد يروق صاحب المنار ان يكرر ذكر الرومان ، واليونان ، والعلوم المستحدثة ، والاختراعات ، والطيارات ، والغواصات ، واللاسلكي ، والاوكسجين والهيدروجين الى غير ذلك من مفردات علمية التي يركبها جزافاً فتبدو ضخمة عجيبة لجهّال العامّة وسواد السوقة . . .

ولكن حاشى قراء المنار ان يكونوا منهم ! فلمن يشحن اذاً صاحب المنار مجلّد العام الماضي والمجلّدات التي سبقته بمثل هذه الالفاظ المتكاثرة الضخمة الثقيلة الوطأة في جملة دينية محضة ؟ وما غايته من ذلك الّا ان ينال فرصة من المسيحية فيغمز قناتها وينسب اليها زوراً اغلاط المدنية !

تعال ، يا شيخنا ! واكشف على خارطة الاديان في العالم ، واحكم عنها ، في اي دين من الاديان ازدهر النور والعمران والاخلاق . انظر اقاليم افريقية الزنجية وسوادها القدم ، وبلاد الصحراء القاحلة وسكانها البدو واسألهم باي نور يهتدون ؟ وانظر الى بلاد اوربة واميركة ، والى الاقطار الفايضة سكانها على ناصية العلوم وعلى زمام الحركة الفكرية في الكون ، واسألهم الى اي لواء ينضمون ؟ ان اللواء الخافق على رؤوسهم انما هو لواء الصليب الذي بعد ان كان آية الذل والعذاب اصبح شارة للمجد والفخر رمزاً لانتصار الروح على المادة ، والنور على الظلام.

ف . ت .